قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة

أكتوبر – نوفمبر ٢٠١٦م

الحلقتان ١٠، ١١

من له حق التَّعميد ومتى يبطُل فعل المعموديَّة

مقدِّمة مطوَّلة حول الإيمان والصَّوم اللَّذين يسبقان المعموديَّة

• في القرون المسيحيَّة الأولى، كان يلزم أنَّ الإيمان يسبق المعموديَّة. يقول القدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٥-٣٩٥م):

[كلُّ ماءٍ مناسبٌ للعماد، شرط أن يجد إيمان الشَّخص الذي ينال المعموديَّة، وتبريك الكاهن الذي يُقدِّس][١].

ويتحدَّث القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) عن أهميَّة الإيمان والمعموديَّة للخلاص، فيقول:

[... المعموديَّة والإيمان هما طريقان للخلاص، لا يمكن فصلهما. لأنَّ الإيمان يكمِّل المعموديَّة، والمعموديَّة مؤسَّسة على الإيمان، وكلاهما مؤسَّس على الأقانيم الثَّلاثة. لأنَّنا آمنَّا بالآب والابن والرُّوح القُدُس. لذلك نحن نعتمد باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس. أوَّلاً بالاعتراف بالإيمان الذي يقودنا إلى الخلاص، وثانياً بالمعموديَّة التي تتبع الاعتراف، وهي الختم الذي يختم قلوبنا][٢].

والإيمان الذي يسبق المعموديَّة، ليس هو ذاك الإيمان الفكري النَّظري عن الله، فهو بالقطع لا يكفي للخلاص، بل ولا يفيد شيئاً على الإطلاق، لأنَّ الشياطين أنفسهم يؤمنون ويقشعرُّون[٣]. فالكتاب المقدَّس لا يعرف هذا النَّوع العقلاني من الإيمان، بل كلُّ حديثه هو عن الإيمان النَّابع من القلب وليس الفكر، الإيمان الذي يُختبر[٤]، الإيمان الذي هو نفسه عملٌ من أعمال الله. فعندما سألت الجموع السيِّد المسيح قائلة له: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب قائلاً: «هذا هو عمل الله، أن تؤمنوا بالذي هو أرسله» (يوحنَّا ٢٦:٢٨، ٢٩). هذا هو الإيمان العامل، والإيمان بعمل الله[٥]. فالإيمان هنا فعلٌ وعملٌ إيجابي، وليس مفهوماً نظريًّا. ويُقرن الكتاب المقدَّس دائماً بين الإيمان والعمل كقوله: «متذكِّرين بلا انقطاع عمل إيمانكم، وتعب محبَّتكم، وصبر رجائكم، ربِّنا يسوع المسيح» (١تسالونيكي ١:٣). واضحٌ هنا أنَّ محبَّة المسيح يكون التَّعبير عنها بتعب المحبَّة، والرَّجاء في المسيح يكون بالصَّبر وانتظار الرَّب، والإيمان بالمسيح يكون بالعمل بوصايا المسيح، «لكي يهتم الذين آمنوا بالله أن يمارسوا أعمالاً حسنة» (تيطس ٣:٨). ويعتب القدِّيس بولس الرَّسول على الذين يعترفون بأنَّهم يعرفون الله (معرفة عقليَّة)، ولكنَّهم بالأعمال ينكرونه[٦].

والأعمال في رسالة القدِّيس يعقوب الرَّسول هي ثمرة للإيمان بالمسيح، وإلاَّ تحوَّلت إلى سلوكيَّات وأخلاقيَّات اجتماعيَّة راقية، يشترك فيها الجميع. بل إنَّ الشَّهادة للمسيح بالقول، هي فعل إيمان «وكلُّ ما عملتم بقول أو فعل، فاعملوا الكُلَّ باسم الرَّب يسوع شاكرين الله الآب به» (كولوسي ٣:١٧).

أنت تؤمن أنَّ دم المسيح وحده يخلِّص من كلِّ خطيئة، هذا جيِّدٌ، ولكن إن لم تسع لتحصل على هذا الدَّم الكريم فكيف

[1] Cf. *PG*, t. XLVI, col. 421, 422 ; *DACL*, t. 2, p.289.

[٢] القدِّيس باسيليوس الكبير، الرُّوح القُدُس، مرجع سابق، ١٢:٢٨

[٣] يعقوب ٢:١٩

[٤] يعقوب ١:٣، ٢:١

[٥] كولوسي ٢:١٢

[٦] انظر: تيطس ١:١٦

تخلُص؟ دمُ المسيح كائن على المذبح في الكنيسة، فهل يستطيع إيمانك بدم المسيح أن يخلِّصك بمعزل عن الكنيسة؟ وهل تستطيع أن تقترب إلى المذبح في الكنيسة قبل أن تولد من رَحِمها؟ إذاً الإيمان بدم المسيح للخلاص ليس فكرةً نظريَّة، بل فعلٌ قلبيٌّ «لأنَّك إن اعترفتَ بفمك بالرَّب يسوع وآمنتَ بقلبك (وليس بعقلك) أنَّ الله أقامه من الأموات خَلَصْتَ» (رومية ١٠:٩). وفي المقابل كلُّ من اعتمد للمسيح، وتقدَّم إلى المذبح للتَّناول من الأسرار الإلهيَّة بدون إيمان قلبي، لا تفيده أعماله هذه شيئاً. فكل إيمان بمعزل عن الكنيسة لا يُخلِّص.

إن كان تدبير الله لحياة الإنسان كلِّها مبنيٌّ على الإيمان[٧] «أمَّا البار (الذي تبرَّر بالإيمان بيسوع المسيح) فبالإيمان يحيا» (رومية ١:١٧)، إلاَّ أنَّ حفظ هذا الإيمان حتى النِّهاية، هو في حدِّ ذاته عملُ إيمان «قد جاهدتُ الجهاد الحسن، أكملتُ السَّعي، حفظتُ الإيمان» (٢ تيموثاوس ٤:٧).

فإزاء الفصل بين الإيمان والأعمال، لا يمكنُنا أن نفهم قول الرَّسول بولس «جاهِد جهاد الإيمان الحَسَن ...» (١تيموثاوس ٦:١٢)، فهذا مستحيل طبعاً، لأنَّ الجهاد الذي يتكلَّم عنه الرَّسول هو جهادٌ من داخل الإيمان، وليس جهاداً مفصولاً عنه.

يقول القدِّيس بولس الرَّسول: «آمنَ إبراهيم بالله فُحسب له برًّا» (غلاطية ٣:٦). والقدِّيس يعقوب الرَّسول يقول: «ألم يتبرَّر إبراهيم أبونا بالأعمال إذ قدَّم اسحق ابنه على المذبح؟» (يعقوب ٢:٢١). فهل هناك تناقض بين قول الرَّسولين؟ حاشا، فلا يمكننا أن نعزل إيمان إبراهيم عن عمله الذي أظهر إيمانه. فإن قُلنا إنَّ الإيمان قد برَّره لا نخطئ القول، عالمين أنَّه إيمانٌ قلبيٌّ حيٌّ تأكَّد بفعل وعمل. وإن قُلنا إنَّ الأعمال قد برَّرته، نوقن أننا نتكلَّم عن عمل الإيمان، أي العمل النَّابع من الإيمان.

• وكما كان يلزم أنَّ الإيمان يسبق المعموديَّة، كذلك كان يلزم أن يسبقها الصَّوم. ولا تتحدَّث كُتُب الطَّقس الحديثة في الكنائس الشَّرقيَّة الآن عن أصوام يلزم أن يمارسها طالبو المعموديَّة، كإعداد سابق لمعموديَّتهم. ولكن كتاب ''التَّرتيب الكنسي المصري'' (أوائل القرن الثَّالث الميلادي)، و''قوانين هيبوليتس'' (القرن الخامس) المصريَّة الأصل والتَّأليف، إلى جانب التَّقليد الإثيوبي، تشير كلُّها إلى أنَّ منح المعموديَّة، كان يسبقه صومٌ لمدَّة يوم أو يومين في البداية. وهو تقليد يرقى إلى القرن الأوَّل الميلادي كما نقرأ ذلك في ''الدِّيداخي'' (تعليم الرُّسُل): ''قبل المعموديَّة، ليصُم المعمِّد والذي يعتمد، ومن يمكنه (ذلك) من الآخرين. وأوصِ الذي يعتمد، أن يصوم يوماً أو يومَين قبل المعموديَّة'' (٧:٤).

وهو نفس ما يقوله الشَّهيد يوستينوس (١٠٠-١٦٥م):

> [كلُّ الذين يؤمنون بأنَّ هذه الأمور صحيحة، ويَعدون بأن يعيشوا بالتَّقوى حسب وصايا ديانتنا، يتسلَّمون أوَّلاً أن يطلبوا من الله الصَّفح عن خطاياهم القديمة بالصَّلوات والأصوام حتى نحن أيضاً نشترك معهم بالصَّلوات والصَّوم] (الدِّفاع الثَّاني: ٩٣).

وإنَّ اشتراك الكنيسة بأسرها في الصَّلاة والصَّوم مع المقبلين إلى المعموديَّة، هو دليلُ حياة حقيقيَّة تسري في كيان الجماعة كلِّها. لأنَّ مؤازرة المؤمنين للغروس الجُدُد التي لم تَقبل الإيمان بعد، بالصَّلاة والصَّوم، هو مؤشِّر جلي على قوَّة وحريَّة عمل الرُّوح القُدُس في الكنيسة. أمَّا اليَوم، فبعد أن صارت المعموديَّة تُمنح لأولاد المسيحيِّين بطريقة آليَّة، فقد ضعفت أو توقَّفت أعمال الصَّلاة والصَّوم من أجل غير المؤمنين، لكي يفتح الرَّب قلوبهم فيُقبلوا إلى النُّور، ويعرفوا الطَّريق الحقيقي إلى الحياة.

ولقد ذكر كتاب ''عهد الرَّب'' أنَّ يومي الصَّوم هما الجُمعة والسَّبت قبل الفصح. بينما يشير كتاب ''المراسيم الرَّسوليَّة'' (النِّصف الأوَّل من القرن الرَّابع) إلى صوم من يريد أن يقتبل المعموديَّة بدون أن يحدِّد فترة الصَّوم. فيقول: ''وقبل المعموديَّة، فليصُم الذي يعتمد'' (٣٦:١٣). ويقول أيضاً: ''فأمَّا الذي يعتمد، فيجب عليه أن يصوم أوَّلاً، وحينئذ

---

[٧] انظر: ١تيموثاوس ٤:١

يعتمد'' (١٦:٣٦)[٨].

ولقد أشار القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) إلى أنَّه يلزم للمتَّقدِّمين للمعموديَّة الصَّوم لمدَّة أربعين يوماً مع الاعتراف بالخطايا.

أمَّا القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) ففي عظة له ألقاها على الموعوظين في كنيسة أنطاكية سنة ٣٨٧م، وكذلك في عظته العاشرة على شرح إنجيل القدِّيس متى، والتي ألقاها في أنطاكية أيضاً سنة ٣٩٠م، قد أوضح أنَّ جميع الموعوظين، ومعهم كلّ المؤمنين، ملزمون بصوم الأربعين يوماً، مشيراً إلى توبة واعتراف، يجب أن يسبقا المعموديَّة.

ونعرف من القدِّيس جيروم (٣٤٢-٤٢٠م) أنَّه قد اتَّسع نطاق استخدام الأصوام وممارساتها في كلِّ الكنيسة الجامعة[٩].

وتذكر القوانين المصريَّة وهي ''قوانين هيبوليتس'' والتي تعود لأواخر القرن الخامس الميلادي: ''والذين يتعمَّدون، فليستحمُّوا بالماء يوم الخميس من الأسبوع، ويأكلوا، ويصوموا الجُمعة'' (١٩:٤).

وبعد قليل، امتد الصَّوم ليشمل الأسبوع السَّابق ليوم المعموديَّة استعداداً لها، كما تشهد بذلك القوانين الكنسيَّة المصريَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير، والتي تعود إلى القرن الخامس الميلادي تقريباً[١٠].

وهكذا نلاحظ أنَّ المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها نظام الصَّوم في الكنيسة الجامعة، قد اقترن عن قرب قريب بالمعموديَّة المقدَّسة، كأعظم حدث يجوزه الإنسان الرَّاغب في الانضمام إلى شركة الكنيسة المقدَّسة، ليصبح عضواً حيًّا فيها. هذا الحدث العظيم، كان يلزم أن يتهيأ له بصوم. والتَّقليد القديم المستقر في الكنيسة، هو أنَّ قبول الأسرار الكنسيَّة عموماً لابد أن يسبقها فترة صوم كتهيئة روحيَّة، حتى وإن كان الصَّوم الذي يسبق المعموديَّة أو غيرها من الأسرار، لا يتعدَّى أحياناً بضع ساعات، وذلك بعد أن تعمَّم وانتشر تعميد الأطفال، وقلَّ أو ندر تعميد البالغين.

ولازالت الكنيسة القبطيَّة تُمارس سرَّ المعموديَّة في حالة صوم للمعمِّد والمعتمد كلاهما معاً.

من له حق التَّعميد؟

يقول القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي المتوشِّح بالله (٣٥-١٠٧م) في رسالته إلى أزمير:
[لا يُسمح لكم أن تعمِّدوا بدون أُسقُف، ولا أن تُقرِّبوا قرابين، ولا أن تقدِّموا ذبيحة].

فالأسرار الكنسيَّة يتمِّمها الأُسقُف وحده، أو من ينيبه في ذلك من الكهنة المساعدين له، وبتصريح منه وبموافقته، باستثناء سرَّي الميرون والكهنوت، اللَّذين لا يمكن تتميمهما بدونه، حاضراً الصَّلاة ورئيساً لها.

ولقد سُمح أحياناً للشَّمامسة، أن يعمِّدوا، مثل فيلبُّس الشمَّاس[١١]، ولكن ذلك لم يكن إلاَّ لداعي ضرورة كُلِّيَّة، حيث يكون الأُسقُف أو القس غائباً[١٢]. فنقرأ في ''المراسيم الرَّسوليَّة'' (٨:٤٦:١١):
''لا يُسمح للشَّماس أن يرفع القُربان، أو أن يعمِّد، أو أن يبارِك صغيراً أو كبيراً''.

ولقد سمح العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) للعلمانيِّين أن يعمِّدوا إن دعت الضَّرورة إلى ذلك، فيقول: 'إنه يستلزم كقاعدة

---

[٨] دكتور وليم سليمان، الدِّسقوليَّة – تعاليم الرُّسُل، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٤٥٦، ٤٥٧

[9] *DACL*, t. 2, p. 276.

[10] *DACL*, t. 2, p. 259.

انظر للمؤلِّف: مصريَّة القوانين الكنسيَّة، المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير.

[١١] انظر: أعمال ٦:٥-٨، ١٢، ١٣، ٣٨

[١٢] العلاَّمة ترتليان، في المعموديَّة فصل ١٨

أنَّ الأُسقُف فقط أو الكاهن يجري المعموديَّة، أو شمَّاساً مبعوثاً من قِبَله. وفي حالات الضَّرورة، يخوَّل علمانيًّا ليجريها'.

ولكن إن اعتمد طفلٌ للضَّرورة من علماني بغطسات ثلاث على اسم الثَّالوث المقدَّس، ثم شُفي ونجا من خطر الموت، فتأمر القوانين الكنسيَّة أن يُتمِّم الكاهن كلَّ طقس المعموديَّة لذلك الطِّفل المعمَّد، ما عدا الغطسات الثَّلاث، واستدعاء الرُّوح القُدُس.

ويحدِّد القديس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) - أُسقُف ليون، وأبو التَّقليد الكنسي - يحدِّد في كلامه من له حق التَّعميد قائلاً:

[يجب الخضوع للكهنة الذين أُقيموا في الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرُّسُل، وأخذوا المواهب الحقيقيَّة بمسرَّة الآب مع الخلافة الأُسقُفيَّة. أمَّا الباقون الذين لم ينالوا الكهنوت بخلافة رسوليَّة، وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيثما اتَّفق، فيجب أن نحسبهم أناساً مشبوهين وهراطقة وأردياء وعُصاة ومتعجرفين ومتكبِّرين ومرائين. وأنَّهم لا يتعاطون ذلك إلاَّ محبَّة في المديح والمجد الفارغ][١٣].

ويقول القدِّيس كبريانوس الشَّهيد (+٢٨٥م) في ذلك:

[لابد للكاهن أن يُقدِّس الماء].

متى يبطُل فعل المعموديَّة؟

يوضِّح القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) في مقاله الافتتاحي لطالبي المعموديَّة، أنَّ الذين يعتمدون بنيَّة شريرة لا تفيدهم المعموديَّة شيئاً فيقول:

[... حتى سيمون السَّاحر جاء يوماً إلى الجُرن (أعمال ٨:١٣) واعتمد دون أن يستنير، فمع أنَّه غطس بجسده في الماء، لكن قلبه لم يستنر بالرُّوح. لقد نزل بجسده وصعد، أمَّا نفسه فلم تُدفن مع المسيح ولا قامت معه (رومية ٦:٤؛ كولوسي ٢:١٢). ها أنا أقدِّم لكم مثالاً لساقط حتى لا تسقطوا أنتم. فإنَّ ما حدث كان عبرة لأجل تعليم المتقرِّبين لهذا اليَوم].

ويقول أيضاً:

[إذا كنتَ هناك بجسدك دون ذهنك فلن تنتفع شيئاً ... إنَّنا عبيدٌ نقبل من يتقدَّم إلينا، كبوَّابين نترك الأبواب مفتوحة. هل تمكَّنتَ من الدُّخول بنفس ملوَّثة بالخطايا ونيَّة دنسة؟ لقد سُمح لك بذلك، وسُجِّل اسمك .... لكنَّك إن بقيت مقاوماً بنيَّة شريرة، فإنَّ المتكلِّم لا يكون مسئولاً. أنت تحرم نفسك من النِّعمة. وإذ تتقبَّل الماء، لا يقبلك الرُّوح. إن أحسَّ أحدٌ بجُرحه فليأخذ المرهم، وإن كان ساقطاً فليقُم. ليته لا يكون بينكم سيمون، ولا رياءٌ، ولا محبٌّ للاستطلاع مملوءًا بلادة من جهة هذا الأمر].

وفي موضع آخر يقول:

[إن جئتَ برياء فإنَّه حتى وإن عمَّدك النَّاس، لا يُعمِّدك الرُّوح القُدُس] (مقال ١٧:٣٦).

وفي كلمات بديعة في نفس مقاله الافتتاحي لطالبي المعموديَّة يقول:

[إنَّ يوم زفافك أمام عينيك، ألا تريد أن تترك كلَّ شيء وتتفرَّغ لإعداد الوليمة؟ لقد اقترب يوم تكريس نفسك للعريس السَّماوي، أما تكُف عن الانشغال بالأمور الزَّمنيَّة حتى تربح الوصيَّة؟].

ويقول أيضاً:

[يا إخوة، حقًّا إنَّها أمرٌ خطيرٌ، يليق بكم أن تقتربوا إليها بكلِّ اهتمام صالح. لقد اقترب وقت امتثال كلِّ واحد منكم في حضرة الرَّب أمام عشرات الألوف من الأجناد الملائكيَّة، والرُّوح القُدُس يختم نفوسكم. إنكم

---

[١٣] ضدَّ الهراطقة ٤:٢٦

تُسجَّلون في جيش ملك عظيم، لذلك تزوَّدوا بارتدائكم ليس لباساً لامعاً، بل ورع النَّفس بضمير صالح].

يتَّضح إذاً لدينا مقدار الحرص الشَّديد الذي كان يلزم أن يُظهره طالب العماد، حتى يصير أهلاً لاقتبال نعمة المعموديَّة. و لم يكن هذا الحرص تفادياً لسلبيَّات حياته السَّابقة وضعفاتها فحسب، بل أيضاً جهادٌ حقيقيٌّ من صلاة وصوم وقراءة في الأسفار المقدَّسة. وفي ذلك يقول القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي في نفس مقاله الافتتاحي:

[صلُّوا بأكثر مثابرة لكي ما يجعلكم الله مستحقِّين للأسرار السَّمائيَّة الخالدة. لا تنقطعوا عنها نهاراً وليلاً ... قدِّموا أذهانكم كلَّها للدِّراسة حتى تحتقروا الأمور الدَّنيئة ... كن متأهباً بالحري للصَّلاة، وليظهر قلبك متشدِّداً في التَّدبير النُّسكي].

فالإيمان قبل المعموديَّة، وإن كان شرطاً للغُرباء عن الكنيسة، فهو مطلوبٌ من الكُل بعد المعموديَّة أيضاً. فالذين خرجوا من مصر واعتمدوا لموسى في البحر وفي السَّحاب، وسبَّحوا وهلَّلوا لإلههم الذي نجَّاهم من العبوديَّة، لم يدخلوا كنعان لعدم الإيمان، و لم ينفعهم عمادهم شيئاً، وهلكوا.

ويؤكِّد القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) على ضرورة حفظ النِّعمة التي نلناها في المعموديَّة، وأهميَّة السَّعي لتكميل الخلاص الذي دُعينا إليه مجاناً فيقول:

[ماذا إذاً، ألا تحفظ أيها الحبيب النِّعمة؟ تهيأ لتقبُّلها، ومتى قبلتها فلا تطردها عنك] (مقال ٣٦:١٧).

[... لاحظوا أنفسكم إلى النِّهاية حتى لا تسقطوا في الشِّباك، فتعيشوا في رجاء، وتصيروا وارثين للخلاص الأبدي] (المقال الافتتاحي).

[... نق كأسك لتأخذ فيضاً أكثر من النِّعمة، حقًّا إنَّ غفرانَ الخطايا يوهب للجميع بالتَّساوي، لكن شركة الرُّوح القُدُس توهَب حسب إيمان كلِّ إنسان. فإن كنتَ تعمل قليلاً تنال قليلاً، وإن كثيراً تكسب مكافأة عظيمة، إذاً اركُض لأجل نفسك واهتم بها] (مقال ٥:١).

من هذا يتَّضح أنَّ المعموديَّة وحدها بدون جهاد الإنسان وحفظه للإيمان في حياته الجديدة مع الله، لا تفيده شيئاً. فالموت الذي نموته مع المسيح في المعموديَّة، لا يلغي ذات الإنسان التي تميل إلى الأرضيَّات، ولكنَّه يلغي سلطانها وسيطرتها على نشاط الإنسان وسلوكه، وبالأخص عبادته. فتبدو الذَّات ميِّتة للعالم، والعالم ميِّت لها، ولكنَّها حيَّة لله شاهدة للحق حتى إلى قبولها الموت بفرح.

الدَّفن في مياه المعموديَّة لا يلغي غرائز الإنسان، ولا يلغي جنوحها للشَّر والباطل، إنَّما بالمعموديَّة يوهب الإنسان قُدرة فائقة على طبيعة البشر، يوجِّه بها الغريزة ناحية القداسة والمحبَّة والطَّهارة، بعد أن كانت توجَّه لخدمة الجسد والعالم. فالإنسان المسيحي الذي اعتمد، مدعو بعد المعموديَّة ليبدأ حياة حسب الرُّوح، في حين أنه لا زال يعيش في الجسد. وعند هذا الحد المتصارع بين الإنسان الجديد المولود من الله والمتَّحد بالرُّوح القُدُس، وبين الجسد المتمرِّد والنَّفس المنحازة له في الإنسان العتيق، يضع الإنجيل الوصايا والخطوات العمليَّة لتحرير الإنسان الجديد من سطوة العتيق.